شعر الطريقة القادرية العركية في السودان وموضوعاته
(دراسة تحليلية أدبية)

أ.منـــى محمد علـــي دريا
باحثة دكتوراة – كلية الدراسات العليا
جامعة كسلا

د. ميرغني حمد ميرغني حمد
أستاذ مشارك – كلية التربية – جامعة كسلا

المستخلص:

إن الشعر الصوفي من نسج شعراء الطرق الصوفية المبدعين الذين صاغوا قصائد صوفية في إطار تجارب كلية أو جزئية ويمتاز الشعر الصوفي القادري العركي في السودان بتعدد موضوعاته وفنونه. ويهدف هذا البحث إلى التعرف على الشعر الصوفي القادري العركي في السودان وأبرز فنونه وموضوعاته. وتأتي أهمية البحث من كونه يتتبع موضوعات الشعر الصوفي القادري العركي التي تعد معيناً غزيراً في الأدب الصوفي السوداني. اتبعت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي بجانب المنهج التاريخي. توصل البحث إلى جملة من النتائج من أهمها: الطرق الصوفية في السودان ومن بينها الطريقة القادرية العركية، قد شكّلت وجدان معظم أهل السودان بموضوعات وفنون الشعر الصوفي الإسلامي، وتركت آثاراً متعددة ومتجددة في الحياة السودانية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

الكلمات المفتاحية: الشعر الصوفي، الطريقة القادرية العركية، السودان .

Poetry of the Qadiriyya al-Arkiya order in Sudan and its topics Literary (analytical study)

A.Mona Mohamed Ali Dria
Dr.Margani Hamed Margani Hamed

Abstract:

Sufi poetry is woven by the creative poets of Sufi orders, and Sufi Qadiriyya al-Arkiya poetry in Sudan is distinguished by its multiplicity of topics. This research aims to identify the most prominent topics of Islamic Sufi poetry according to the Qadiriyya al-Arkiyya order in Sudan. The importance of the research comes from the fact that it traces the themes and arts of Sufi poetry in the Qadiriyya al-Arkiya order in Sudan. The researcher followed the descriptive analytical method in addition to the historical method. The research reached a number of results, the most important of which are: Sufi orders in Sudan, including the Qadiriyya al-Arkiya order, have shaped the conscience of the people of Sudan with the themes and arts of Islamic Sufi poetry, and have left renewed effects on Sudanese life since the middle of the sixteenth century AD.

Key words: sudan, Qadiriyya al-Arkiya poetry, Sufi poetry.

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن أتبعهم إلى يوم الدين وبعد:

يمثل الشعر الصوفي ظاهرة فنية خالدة في مسيرة الشعر العربي ، واتجاهاً فنياً بارزاً وذائعاً ومستمراً حتى اليوم . ويبدو أنّ هذه النزعة الصوفية في الشعر العربي خُلقت لتبقى وتعيش وتخترق إبداعات الأدباء. وإن الشعر العربي لم يخلُ من نماذج الاتجاه الصوفي ، وازدهرت مذاهبه الفنية عبر العصور المختلفة. والأدب الصوفي هو لون من ألوان الأدب الرفيع ، يحمل في طياته أسمى معاني السمو الروحي والعاطفي والوجداني . ومما لا شك فيه أن الشعر الصوفي السوداني يحتل – كماً وكيفاً- مكاناً بارزاً بين تراثنا الأدبي، وعلى الرغم من السياق العامي لأكثره في هذه النصوص الشعرية إلا أننا نراها ارتدت ثوباً عربياً أصيلاً في مفرداتها اللغوية ومعانيها وإطارها الموسيقي. وقد ظلت الأشعار الدينية للطرق الصوفية في السودان، ولا سيما الطريقة القادرية العركية تشغل الحيز الأعظم من ركن الشعر الصوفي خاصة والشعر الشعبي بعامة، وقد تضمنت هذه الأشعار في جل نصوصها إشارات إلى الحب الإلهي والمدائح النبوية ومدح مشائخ الطرق الصوفية، بل استقل بعضها في وصف هؤلاء المشائخ، واستحالت هذه الأشعار في بعض المواقف الوطنية كما هو الحال إبان فترة الثورة المهدية – إلى شعارات وطنية إسلامية تعبر عن حالات الأمة وتحفزها إلى الجهاد في بعض المواقف الوطنية. من أجل ذلك وقع اختيار الباحثة لهذا العنوان « شعر الطريقة القادرية العركية في السودان وموضوعاته: دراسة تحليلية»، وتتمثل مشكلة البحث في التساؤلات الآتية:

أسئلة البحث :

1. ما مفهوم التصوف في اللغة والاصطلاح ؟
2. ما مفهوم الأدب الصوفي في االسودان؟
3. ما الشعر الصوفي المعاصر وما سماته الفنية؟
4. ما الطريقة القادرية العركية في السودان، ومن هم علماؤها، وما أغراض شعرهم وسماته؟
5. ما أبرز موضوعات الشعر القادري العركي على الأدب السوداني الحديث؟

أهمية البحث :

1. عدم وجود دراسات سابقة كافية تفي بحق الموضوع وتغطي جوانبه، إذ أن أغلب الدراسات التي تناولت الشعر الصوفي وشعراءه في السودان كانت تتجه نحو موضوعات أخري.
2. وتنبع أهمية البحث أيضاً من كونه أدباً قديماً من أنواع الأدب الفني الذي عرفته المجتمعات الإسلامية في العصور المختلفة وتناول جانباً مهماً من تراث الطريقة القادرية العركية ، التي تعد معيناً غزيراً في الأدب الصوفي السوداني.
3. الحاجة إلى دراسة النزعات الدينية الإسلامية التي ترتبط بالآداب العربية لتنمية الإتجاهات الإيجابية لدي المستفيدين من البحث.

أهداف البحث:

1. الكشف عن مفهوم الشعر الصوفي وأثره في الأدب السوداني.
2. التعرف على الشعر الصوفي ودوره في نشر الإسلام .
3. الكشف عن أثر الشعر الصوفي في حياة الإنسان السوداني.
4. التعرف على أثر الشعر الصوفي ودوره في تشكيل الثقافة السودانية.
5. الكشف عن الأثر اللغوي والوجداني للأدب الصوفي لدى المتصوفة .
6. التعرف على أبرز موضوعات الشعر الصوفي القادري العركي في السودان.

منهج البحث:

اتبعت الباحثة في هذا البحث المنهج الوصفي القائم على الإستقراء والتحليل، بجانب المنهج التاريخي.

الدراسات السابقة:

لم تعثر الباحثة على دراسات سابقة لنفس الموضوع ، إلا أنها حصلت على عدد من الدراسات السابقة ذات الصلة بالدراسة الحالية، ومن هذه الدراسات ما يلي:

جماليات الرمز في الشعر الصوفي:

دراسة هدّي فاطمة الزهراء، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، 2006م. هدفت الدراسة على الوقوف على جماليات الرمز في الشعر الصوفي، واتبعت الباحثة المنهج الوصفي والفني ، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها: يعد التصوف جانباً من أخص جوانب الحياة الروحية في الإسلام ، وهو تجربة وسلوك قبل أن يكون مذهباً وفكراً، ذلك لأنه يعد تعميقاً لمعاني العقيدة.

نماذج من شعر الشيخ محمد مجذوب قمر الدين:

فائزة الطيب محمد، رسالة ماجستير، معهد دراسات العالم الإسلامي، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2006م. هدفت الدراسة إلى التعرف على الفكر الصوفي عند الشيخ المجذوب، واتبعت الباحثة المنهج الوصفي والتاريخي، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها: الشيخ المجذوب مال إلى نزعة التصوف في شعره وتأثر بشعراء التصوف السابقين في العالم الإسلامي أمثال البرعي والبصيري وابن الفارض، وخلف الشيخ المجذوب وأتباعه تراثاً ثقافياً أسهم في نشر الثقافة الإسلامية في السودان.

التصوف من إشكالية الفهم إلى تيه الممارسة:

دراسة العيد علاوي، مجلة المخبر، العدد الثامن سنة 2012 ، الجزائر. تهدف هذه الدراسة إلى توضيح أن التصوف أحد التيارات الفكرية التي جعلت سلوك الإنسان مناط الاهتمام ، بغية العروج به إلى مدارج الكمال والخروج به من دائرة المادية إلى الروحانية وتزكية النفس ، فتعددت تعاريف العلماء له فمنهم من قارب الصواب ومنهم من حاد عن سنن الإستواء ، تأتي هذه الدراسة لإماطة اللثام عن نشأة علم التصوف ،والكشف عن أهم أعلامه ، وتحقيق القول في مفهومه وأنواعه ومدى إسهامه في تهذيب السلوك الإنساني .

الشعر الصوفي في تشاد:

د. إيهاب على عامر، إصدارة جامعة الملك فيصل بدولة تشاد، مايو 2015م. هدفت الدراسة إلى التعرف على موضوعات وخصائص الشعر الصوفي في تشاد، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها:

إن الشعر الصوفي في تشاد أسهم بنصيب موفور في إثراء النهضة الأدبية ووصل إلى مرحلة تقربه من الشعر الصوفي في الأقطار التي عرفت التصوف مبكراً وانتشر بين أهلها.

جماليات الأسلوب في القصيدة الصوفية:

علوي إبراهيم ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، 2018. هدفت الدراسة إلى التعرف على جماليات الأسلوب في القصيدة الصوفية «لامية بن الوردي أنموذجاً» ، واتبع الباحث المنهج الأسلوبي في التحليل والمقاربة، واتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي بجانب المنهج التاريخي، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها: احتوت لامية بن الوردي على جماليات بديعة شملت اللغة والأسلوب والمعنى تحمل معاني التصوف السني السليم المرتكز على الزهد المحمود .

من خصائص الأدب الصوفي:

دراسة أ.د أمحمد الحاج لقواس و د. عبدالقادر بعداني، مجلة أمارات، المجلد3، العدد2، سبتمبر2019م. هدفت الدراسة إلى التعرف على بعض خصائص الأدب الصوفي ، واتبع الباحثان المنهج الوصفي التحليلي، وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج من أهمها: يلجأ الصوفيون إلى استعمال الإشارة في تعابيرهم لأغراض متعددة منها ، أنهم مضطرون لعجز اللغة عن التعبيرعما يجيش بخيالهم وعما يختلج في صدورهم .

التعليق على الدراسات السابقة:

تناولت الدراسات السابقة موضوعات ذات صلة وثيقة بموضوع البحث الحالي، واتفقت مع البحث الحالي في المنهج العلمي المتبع ، وقد استفادت الباحثة من تلك الدراسات أيّما فائدة، وفتحت أمامها الباب واسعاً لدراسة متأنية حول موضوع بحثها وهو « شعر الطريقة القادرية العركية في السودان وموضوعاته:دراسة تحليلية»، وإنْ كانت هناك حسنة تسجل لهذا البحث الحالي، فإنّما هي محاولة الباحثة التعرف على شعر الطريقة القادرية العركية في السودان وأبرز فنونه وموضوعاته، وهو ما لم يطرقه باحث من قبل على حسب علم الباحثة .

هيكل البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة:

المقدمة: جاء فيها أسباب اختيار البحث، وأهميته، وأهدافه ، ومنهجه، بالإضافة إلى طائفة من الدراسات السابقة.

المبحث الأول: مفهوم التصوف . **المبحث الثاني:** الشعر الصوفي في السودان. **المبحث الثالث:** لمحة عن الطريقة القادرية العركية وأبرزسماتها. **المبحث الرابع:** موضوعات شعر الطريقة القادرية العركية.

المبحث الأوَّل: مفهوم التَّصَوُّف في اللُّغة والاصطلاح

التصوف في اللغة : ورد مفهوم التصوف في معاجم اللغة تحت مادة «صوف» على عدة معان منها إطلاق الكلمة على الصوف المعروف من شعر الحيوانات، قال الله تعالى: «وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ»[1] .

جاء في لسان العرب، في مادة (صوف) ، الصوف: للضأن، والجمع أصواف، وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع ، ويقال لواحدة الصوف: صوفة ويصغر: صويفة وكبش أصوف: كثير

الصوف[2]. وورد في معجم المعاني ، تصوَّفَ يتصوَّف ، تصوُّفًا ، فهو مُتصوِّف، تصوَّف الشَّخصُ : صار صُوفيًّا واتبَّع سُلوكَ الصُّوفيّة وحالاتهم. تَصَوَّفَ الرَّجُلُ: لَبِسَ الصُّوفَ. صَوِفَ الْحَيَوَانُ : كَثُرَ صُوفُهُ[3]. وجاء في مختار الصحاح: صوف: الصوف للشاة، وصوفة أخص منه[4]. وجاء في المعجم الوجيز: صوف، الكبش صوْفاً كثر صوفه، فهو أصوف؛ التصوف: طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل. والصوفي: من يتبع طريقة التصوف والصوفية : جماعة المتصوفين[5].

فإنّ الباحث عن جذر التصوف في اللغة العربية سوف يجد أنّ الجذر هو «صوف»، فالكلمة قد تكون آتية من الصوف الذي هو ما يكسو ظهر الضّأن ونحوه، غير أنّ الإمام القشيري - وهو من أئمّة الصوفية الكبار، يرى أنّ لفظة الصوفية والتصوف مولّدة وغير مشتقّة من أيّ جذر من اللغة العربيّة؛ فهي إذًا لفظة تدلّ عليهم وعلى الصوفية واصطلحوا على التسمّية بها، وفي هذا المعنى يقول الشاعر[6]:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه	ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب	ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا
بـــل التصوف أن تصفو بلا كدر	وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن تُرى خاشعاً لله مكتئبا	على ذنوبك طول الدهر محزونـا

إلا أنّ ابن خلدون يرى أنّ لفظة الصوفية إن كانت مشتقّة من اللغة العربية، فهي من لبس الصوف الذي اشتُهر به أهل هذا الطريق ومعناه الابتعاد عن زينة الدنيا في ظل إقبال الناس عليها. ورجح ابن خلدون أن الأصل الاشتقاقي لاسم التصوف هو الصوف، وقد قال في هذا الصدد: «والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، فما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال إلى العبادة، واختصوا بمآخذ مدركة لهم»[7]. ويرى أحمد أمين أيضاً أن الكلمة مشتقة من الصوف، فقال: «إنّ الناس قد اختلفوا في نسبة الكلمة هل هي من الصفة أو من الصفاء أو من «سوفيا» اليونانية أو من الصوف، ونحن نرجح أنها نسبة إلى الصوف؛ لأنهم في أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشانا وزهادة، كما نرجح أنها كانت ترتكز في أول أمرها على أساس إسلامي، فركنا التصوف أول ما ظهر هما: الزهادة وحب الله»[8]. ويعد كتاب «التصوف الإسلامي» لقاسم غنى من المؤلفات الحديثة الهامة التي درست بشكل معمق ظاهرة التصوف في تاريخ الإسلام. ففي سياق حديثه عن ظهور كلمة صوفي ومتصوف وأصل هاتين الكلمتين في الثقافة العربية الإسلامية، توقف الكاتب ملياً عند الأصول اللغوية التي تنتسب إليها ، ومن ضمن حديثه قال: «إن أول شخص وقف نفسه كلية لخدمة الله عز وجل كان يجاور الكعبة اسمه (صوفة) وكان اسمه الحقيقي «غوث بن مر» والزهاد الذين كانوا يشبهونه من حيث الانقطاع عما سوى الله سموا بالصوفية»[9]. وقد ذهب الكلاباذي[10] إلى أن أصل الصوفية ينتسبون إلى الصفاء ،وأنهم سموا صوفية لصفاء أسرارهم وشرح صدورهم وضياء قلوبهم ، وفي هذا أنشد الأمام تقي الدين السبكي لأبي الفتح البستي :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا	قدما و ظنوه مشتقا من الصـوف
ولست انحل هذا الاسم غير فتـى	صافي فصوفي حتى لقب الصوفي

وكثير من الصحابة كانوا يلبسون الصوف، فالحسن البصري يقول: «أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف»[11]، والبدريون هم الذين شاركوا مع الرسول ﷺ في معركة بدر. ولكن ليس الصوف دائماً يدل على التقوى والصلاح في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كان الكثير من الناس يلبسون الصوف ليقال لهم بأنهم أتقياء ورعون، ولكنهم في الجوهر لاعلاقة لهم بذلك. ويورد ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» بيتين قالهما الشاعر محمود الوراق في هؤلاء المتصوفة[12]:

تصوف كي يقال له أمينولست وما يعني التصوف والأمانة
ولم يـــــــرد الإلـه بـه ولكن أراد به الطريق إلى الخيانة

نلاحظ مما سبق أنّ الأصل الذي اشتُقَّت منه كَلمة (التَّصَوُّفِ) أو كلمة (صوفيٌّ)، لم يُعرف له مصدر محدَّد من قِبل العلماء وأكثرِ الباحثين، سواء منَ الصُّوفيَّة أو من غيرِهم، ولكنَّهم ذَكروا عدةَ احتمالات لتحديد الشيءِ الذي اشتُقَّت منه[13]، وهي :

الأوَّل: أنَّ كَلمةَ التَّصَوُّفِ نسبة إلى الصَّفاء.

الثَّاني: أنَّها مَنسوبة إلى الصُّفَّة؛ نسبة إلى أهل الصُّفَّة الذين كانوا يقعُدون في مُؤَخرة مسجد رسول اللهِ ﷺ .

الثَّالث: أنَّ التَّصوُّف نسبة إلى رجل يُقال له صوفة، واسمه العَونيُّ بنُ مُرٍّ.

الرابع: أن تَكون نسبة هذه الكلمة إلى الصُّوف، وقد ذَهب إلى ذلك ابن فارِس، وابن تيميَّة، وابن خلدونَ.

الخامس: أن تكون مشتقة من كلمة «صوفيا» SOFIA اليونانية التي تعني الحكمة .

السَّادس: أن الصوفي سمي صوفياً لأنه كالشعرة هين لين هاوي؛ فهو منسوب إلى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة من مؤخر العنق.

ويبدو للباحثة أن ربط التصوف بالصوف ربط مقبول يستسيغه العقل والمنطق وتقبله القرائن التاريخية واللغوية، وأن اختلافهم في وصف أصل التصوّف جاء من اختلاف الرؤى لهذا الأمر العظيم[14]، فكل من وصفة وصف جهة معرفته وتذوقه له كما لو اجتمع قوم حول جبل شاهق عظيم وأرادوا وصفة فكل واحد منهم يصفه من جهة ما يرى ويلمس ويدرك، وقد تختلف الأوصاف بشكل ما ولكنها جميعاً تؤكد وصفاً لشيء هائل وكبير؛ وعن التصوف الإسلامي يقول الشيخ عبدالرحمن عبدالعزيز[15]:

إنّ التّصوفَ بالإسلام مَوصول حقيقة إنه زهد وتبتيل
فلا انفكاك له عن ديننا أبداً مهما تقاومه من قوم أباطيل

معنى التصوف اصطلاحًا:

ذكر أحمد زروق في كتابه «قواعد التصوف»، أن تعريفات التصوف قد تصل إلى ألفي تعريف، وأنّ تعددها ناجم عن تعدد وتنوع التجارب الصوفية التي عاشها المتصوفة؛ وقد قال في هذا الصدد أنه «قد حُدّ التصوف ورُسم وفُسّر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجعها كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه»[16]، من هذه الأقوال والتعريفات: قول ابن خلدون، يقول: « التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل علية الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة»[17]. وذكر ابن خلدون في مقدمته أيضاً: «وهذا العلم ـ يعني التصوف ـ من العلوم الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة

والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة , والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد في مايقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والإنفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف؛ فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني الهجري وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»[18]. وعرفه حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي بأنه: «هو طرح النفس في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، وإتباع رسول الله ﷺ في الشريعة، فهو تزكية النفوس وصفاء القلوب وإصلاح الأخلاق[19]. وقال القاضي زكريا الأنصاري:»التصوف علم يعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية»[20]. وعرفه الجرجاني بأنه : «هو علم القلوب الذي يبحث في أحوال النفس الباطنة ، ويسعى إلى تصفية القلوب والطهر والتجرد ، ويؤدي إلى الاتصال بالعالم العلوي»[21] .

يقول إبراهيم هلال: «رَغم كثرة التَّعريفات التي عُرِّف بها التَّصوُّف الإسلاميُّ في كتب التصوُّف وغيرِها فإنَّنا نستطيع أن نقول: «إنَّ التَّصوُّف كما يراه الصُّوفيَّة في عُمومه هو السير في طريق الزُّهد، والتجرُّد عن زينة الحياة وشكليَّاتها، وأخذ النَّفسِ بأسلوب من التقَشُّف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع، والسهرِ في صَلاة أو تلاو وِرد، حتَّى يَضعُف في الإنسان الجانب الجسديُّ، ويَقوى فيه الجانب النَّفسيُّ أوِ الروحيُّ، فهو إخضاع الجسد للنفسِ بهذا الطَّريق المتَقدِم؛ سعيًا إلى تحقيق الكمال النفسيّ، وإلى معرِفة الذَّات الإلهيَّة وكمالاتها، وهو ما يعبِّرون عنه بمعرِفة الحقيقة «[22].

المبحث الثاني: الشعر الصوفي في السودان:

إنّ حركة الشعر الصوفي في السودان ابتدأت منذ اختلاط القبائل العربية التي دخلت السودان عن طريق البحر الأحمر وطريق الشمال، ثم بدأت تظهر خيوط الشعر التي أخذت في البداية الجانب الدارجي الفطري ، فظهرت المخطوطات الأولى من الشعر في الجانبين الديني والدنيوي، وظهر في الشعر الصوفي أوّل ما ظهر المديح ، ومن الأمثلة: قصيدة الشيخ محمد الهميم في مدح الشيخ بانقا الضرير[23]:

هَـــذا المُربِي الكـــــرام سَادات — سُلطان زمانُه فالطلبة الدعوات
الشيخ محمد يوم لقا العَرضات — هو يشفع لي يوم تُكشف العورات
لا نار يخـاف منها ولا الجنات — يشتاق لي نظـــــر الإله حاجات

ولقد ابتدع الصوفية فنوناً في الآداب العربية ، لم يشاركها فيها غيرهم مثل: المدائح النبوية، والزهد، والحب الإلهي ، والأوراد، وهي بالحق ألواناً حية طالما أثارت اللواعج وحركت الأشواق في قلوب العاشقين والسالكين. وقامت أشعار الشعر الصوفي في هذه الفترة بدور مهم في المجتمع السوداني بتوجيهه وتهذيبه وتعليمه، فهي نافذة للوعظ والإرشاد والعبرة والاعتبار ربطت بين ماضي الأمة السودانية وحاضرها بتمجيدها للإسلام وأبطال الإسلام وتناول مدح الرسول ﷺ والدعوة إلى العبادة وزجر النفس وإتباع الهوى ، وكانت وسيلة لنشر الثقافة الإسلامية وهي مليئة بأحداث السيرة العطرة وتعاليم الإسلام[24]. والثابت حسب المصادر أنّ أوّل شعر فصيح وصل إلينا موثقاً هو ذلك الشعر الذي نظمه شعراء التصوف الإسلامي ورجال الفقه في فترة دولة الفونج (1504م – 1821م) ، وانحصرت أغراضه في مدح النبي ﷺ، ومدح مشايخهم ورثائهم [25]، ومن هنا نرى أن هذا الشعر الذي وصل إلينا هو النواة الأولى لشعر التصوف في السودان، بل النواة الأولى

للشعر السوداني ككل، ومن أمثلته قول الشيخ مكي الدقلاشي القادري العركي[26] :

الله لي عدة في كل نائبة أقول في كل نائبة حسبي الله
يا فارحاً بالمعاصي عند خلوته أما علما بأنّ الشاهد الله

إذن إنّ الفترة التي تبدأ من عصر الفونج إلى بداية الحرب العالمية الأولى (1914م- 1918م) هي فترة نشأة الشعر الصوفي في السودان ، ومن ثم تشكلت ملامحه المعروفة اليوم . وقد تأسى شعراء الشعر الصوفي في السودان بسلفهم الصالح فكان المدح النبوي وما زال هو إحدى دوائر الشعر الصوفي ، فإذا نظرنا لقول البوصيري المصري يبين زهد النبي ﷺ[27]:

وراودته الجبال الشمّ من ذهب عن نفسه فأرها أيّما شمم

فنجد المادح ابن أبي شريعة السوداني يصور هذا المعنى باللغة العامية السودانية [28]:

جاتو الجبال محمولة ما لذهباً خزينا
طه ابْجَمال ماليه اما لْقلْبو الرّزينا

وأمثالها كثيرة باللغتين الفصحى والعامية في أشعار حاج الماحي وود سعد وعبدالملك وحياتي والسادة آل أبي كساوي والشيخ عبدالله بن يونس والسيد جعفر الميرغني والشيخ عبدالمحمود والشيخ قريب الله والشريف يوسف الهندي والشيخ عبد الباقي المكاشفي والشيخ الصابونابي والشيخ البرعي وغيرهم ممن لا يحصر لهم عدد. وبدخول الحكم التركي إلى السودان (1821م – 1898م)، بدأت تأخذ الثقافات العربية حقها الطبيعي في الانتشار في السودان، ولا سيما وسط السودان لارتباطه بمقر الحكومة وسهولة المواصلات بين مصر والسودان، هذا وقد انتقل من مصر إلى السودان شعر البرعي والبصيلي وكبار شعراء اللغة العربية من خلال الزيارات والانتشار الثقافي، وظهر الشعر الصوفي الفصيح، ومنه قول الشيخ إسماعيل بن عبدالله[29] :

أقول بحمد المنان وأشكر فضل الرحمن
لما أعطى وأولاني من الأسرار بأحسان
شربتُ الحـــــبَ كاسات ولم أرَ بمرّات
ظَهرتُ بها سكرات لأسقي كـــل ظمآن

وقول الشيخ قريب الله أبو صالح[30]:

مولاي خلصني مـــن أهـــوائي وأحسن بحولك يا مهيمن دائي
وأجذب إلـــيك أعنتي بجواذبي لا أنثني من بعـــــدها بهوائي
وإليك خذ مـــن الفـــؤاد جميعه بالذات والأوصـــــاف والأسماء

إنّ الشعر الصوفي في السودان منذ نشأته يعد واحداً من الأشياء التي أسهمت في حفظ التعايش بين السودانيين بمختلف معتقداتهم الفكرية ، وإن المديح النبوي أحد ألوان الشعر الصوفي المهمة وحد وجدان الأمة السودانية وكان له أثر بالغ في تعظيم ومحبة النبي ﷺ ، في قلوب كافة أبناء البلاد ، مؤكدين أن التصوف هو المعين الأول الذي ساعد على انتشار الدعوة الإسلامية ، مبينين أن الصوفية هم من وضعوا الأسس السليمة لطريقة الدعوة [31].

يقول المرحوم القرشي ود محمد حسن:» إن شعرنا الصوفي ينتمي إلى أصول المدحة النبوية العربية

الفصحى التي كتبها شعراء الرسول الثلاثة: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، وذلك تبركاً وسلوكاً وعقيدة، وأن الباحث في مضامين شعرنا الصوفي ولا سيما المدائح النبوية يجد أن وشائج القربى بينها وبين مدائح الإمام البوصيري والبرعي أقوى بكثير من وشائج القربي في عهد الرسول[32]، ويؤكد القرشي أن هناك صعوبة في التحديد الزمني لأول شاعر كتب المدحة الشعبية في السودان، ويستنتج أن ذلك تم في بداية العهد التركي، وأنّ أقدم شاعر من شعراء التصوف في المدائح النبوية بالسودان هو «النقر ود الشاعر» من الجعليين البادراب، وهو صاحب مدحة السلامة[33] :

يا الله السّلاما بديت بي الله النظاما

يا حيا طول الدواما قديم الله يا فهامه

إنّ الشعر الصوفي الإسلامي منذ نشأته أثر على الشعر السوداني وتأثر به، كما أنه تأثر بالشعر العربي، حيث نجد أن القصيدة الصوفية قد حوت بعض الصور والاستعارات المأخوذة من الشعر العربي الفصيح؛ مثل (من أسد شبول) (صوفي الصفات) (بيض الوجوه) أهل (الفضول)، فمثلاً في القصيدة التي قالها عبدالنور في رثاء الشيخ أبو إدريس العركي ومديح ابنه دفع الله الذي خلفه في مشيخة الطريقة[34]:

صوفي الصفات فذاك شيخي أبو إدريس الورع الوجول

وأولاده كلهم صالـــحون بيض الوجوه أهل الفضول

فإذا عقدنا مقارنة بين قصيدة الشيخ عبدالنور وبين قول حسان بن ثابت:

بيض الوجوه كريمة أنسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

نلاحظ مدى تأثر الشعر الصوفي في السودان منذ نشأته بالشعر العربي عامة، والفصيح منه على وجه خاص . فقد ذكر شوقي ضيف في كتابه العاشر من تاريخ الأدب العربي: «أنّ بعضاً من شعراء السودان منذ عصر الفونج دعوا إلى الزهد وانتظار متاع الآخرة كالشيخ فرح ود تكتوك أحد أشهر رجالات التصوف في ذلك العصر[35]:

كم دودة في عميق الأرض في جُحر

يأتي لها رزقها في الوقت والحين

مـــن باع دينا بدنيا واستعز بها

كأنّما بـــاع فـــــردوسا بسجين

وكان شعراء التصوف، كما يقول عبده بدوي في مؤلفه «الشعر في السودان» يخضعون الشعر لقضية الترنيم والسماع فيتخففون من القافية ويشبعون الحروف كقول الشيخ مكي الدقلاشي[36]:

الله لي عـــــــدة في كل نائبة أقول في كل نايبة حسبي الله

يا فـــــــــارحا بالمعاصي عند خلوته أما علمت بأنّ الشاهد الله

إلى متـــــــــى أنت في لهو وفي لعب فما مقالك فيما يعلم الله

ويبقى القول أنّ الحركة الأدبية في بداية الشعر السوداني قامت بمجهود صفوة من علماء وأدباء الصوفية؛ وكانت تسعى إلى النظم بالفصحى، ومهما يكن من شي فإنّ الشعر السوداني نشأ في مجتمع زاهد بسيط تسيطر عليه الصوفية؛ بل إنّه شبّ في كنف الطرق الصوفية، فجاء معبراً عن لسان حال ذلك المجتمع، وأضحى نواة للشعر السوداني الفصيح الذي نضج عوده واستقام ميسمه حتى بلغت نضارة العبارة حد أن

يقول إدريس جماع[37]:

دنـــــــــياي أنت وفـرحتي ومنى الفـــــــؤادِ إذا تمنّى
أنت الســــــــماء بدت لـنا واستعصـــــــــمت بالبعد عنّا

والتجاني يوسف بشير(1912 - 1937) من رواد شعر الرومانسية الصوفية المتجددة، مات وهو شاب وكتب أروع شعره وهو صغير، ولد في بيئة ذات ثقافة دينية محافظة. وسمي بهذا الاسم تيمناً بصاحب الطريقة التيجانية الصوفية المعروفة، الإمام أحمد التيجاني المتوفي في فاس بالمغرب سنة 1815م. وقد ظهر الطابع الديني في شعره الصوفي. ومن أشعارة التي تأثر فيها بالأدب الصوفي قصيدته «الصوفيِّ المُعَذَّب» [38]:

هذهَ الذَّرَّةُ كمْ تَحـمِلُ في العالَمِ سِرًّا
قِفْ لَديْها وامْتَزِجْ في ذاتِها عُمْقاً وغَوْرا
وانْطَلِقْ في جَوِّها المَمْـلوءِ إيماناً وبِرًّا

وإذا طالعنا كتاب «النزعة الصوفية في الشعر السوداني» لمؤلفه الدكتور الباشا برشم، نجد أنه قد حوى مباحث تتناول بإفاضة وقراءة متأنية عدداً من شعراء السودان الذين اصطبغت تأثيرات التصوف عليهم، كما احتوى الكتاب على دراسة تطبيقية للشعراء: التجاني يوسف بشير ومبارك المغربي وأحد كبار شعراء العربية محمد سعيد العباسي. ويخلص الكتاب الى أن لصوفية المهجر صدى في الشعر السوداني وبخاصة لدى أولئك الذين درسوا خارج بلادهم أمثال: الفيتوري وجيلي عبدالرحمن ومحي الدين فارس وذلك لوحدة التجربة وتطابق ظروف الغربة مثلهم مثل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا ابوماضي.

وترى الباحثة أنّ الشعر الصوفي في السودان منذ نشأته وحتى يومنا هذا، يعد فناً شائعاً ومنتشراً، وقد أخذ حقه الطبيعي في الازدهار والإنتشار والنضوج، حتي أصبح يمثل قاعدة عريضة وصفحة زاهية ومشرقة في الأدب السوداني الذي أثر عليه وتأثر به، بالرغم من أنّ الكثير من الشعر الصوفي الإسلامي في السودان، لم يحظ بدراسات مستفيضة .

المبحث الثالث: لمحة عن الطريقة القادرية العركية وأبرزسماتها:

تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطرق انتشاراً في كل أرجاء العالم. وكان للسودان حظ وافر من هذا الانتشار إذ تعددت المدارس القادرية بعدة أسانيد، والطريقة القادرية هي أحد الطرق الصوفية السنية والتي تنتسب إلى عبد القادر الجيلاني (471 هـ - 561 هـ)، مؤسس الطريقة القادرية، والتي ينتشر أتباعها في كثير من بلاد العالم . وتفرعت عن الطريقة القادرية عدة طرق، وما يلي البحث من تلك التفرعات للطريقة القادرية، الطريقة القادرية العركية في السودان، وهي مدرسة الشيخ عبد الله العركي وشيخها حبيب الله العجمي، والتي يرجع سندها إلى الشيخ عبد الله العركي المولود فى القرن العاشر الهجرى (923هـ) أى منتصف القرن السادس عشر الميلادي (1517م) والمتوفَّى عام (1019هـ / 1611م) تقريباً[39]، وقد اخذ بيعة الطريقة من الشيخ حبيب الله العجمي خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني، ثم جاء الى السودان لنشر الدعوة واستقر في كردفان في منطقة تدعى (بئر سرار) ثم انتقل الى منطقة (ابو حراز)، حيث مركز الطريقة العام الآن . وتعد القادرية بتفرعاتها من أكثر الطرق انتشارا في السودان، ويقدر الشيخ الريح أتباع القادرية العركية في السودان بأربعة ملايين شخص[40]. وقد كان للشيخ عبد الله العركي دور رائد في انتشار الطريقة

القادرية بالسودان، فنجد أن معظم بيوتات الدين القادرية يرجع سندها إليه إما مباشرةً أو عن طريق خلفائه وخصوصاً في عهد خليفته وابن أخيه الشيخ دفع الله بن أبي إدريس – المشهور بالمصوبن - حيث شهدت الطريقة اتساعاً عظيماً في فترة خلافته، وكان تلاميذه يفدون إليه من مختلف بقاع السودان بأعدادٍ لا تحصى لتلقّي العلم والإرشاد وحضور المناسبات الدينية التي كان يقيمها[41]. ومن أبرز السمات للطريقة القادرية العركية أتباعها لما ذكره الشيخ عبد القادر الجيلاني: «طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة فمن خالفهما فليس منا». وقوله: «اجعل الكتاب والسنة جناحيك طر بهما إلى الله»، بالإضافة إلى الاعتقاد بشيخ الطريقة الصحيحة: ومعنى هذا أن يحبوه ويحترموه ويقدروه ولا يهملوه ولا يعظمونه فوق الحد المطلوب ولا يغلوا في حبه ولا يعتقدوا فيه العصمة فإنه بشر يخطئ ويصيب ، يقول الشيخ الجيلاني في كتابه «الغنية»: «يا بني إياك أن تنظر إلى شيخك أنه معصوم إنما هو بشر يخطئ ويصيب فإن رأيت منه مخالفة فابحث له عن عذر شرعي، فإن لم تجد له عذر فاستغفر له الله فإنه بشر يخطئ ويصيب»[42].

كان الشيخ العركي الذي تنسب إليه الطريقة القادرية العركية في السودان، لطيف الصفات يلوح من سمته كرم الأخلاق وطيب الأعراق بهي الطلعة وافر العقل مخفوض الجناح شديد الحياء متمسك باتباع السنة وآداب الشريعة . كان سريع الدمعة ، شديد الخشية ، كثير الهيبة، مجاب الدعوة ، شديد البأس إذا انتهكت حرمات الله عز وجل ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربه[43]. يقول شقيقه وتلميذه الشيخ محمد أبو إدريس الزاهد: «إن سيدى الشيخ عبد الله العركي رضي الله عنه لقد نال من أحوال القطبية ومقاماتها والاستغراق في مدارجها والاستيلاء على جميع أطرافها – ما لم ينله غيره من الأولياء فيما نعلم»[44] . وقد قام تصوف الشيخ العركي على الالتزام بالشرع ، فمن أقواله: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة فمن لم يحفظ الحديث ورجاله ويحفظ القرآن العزيز ويتفقه في الدين ومصطلح الصوفية لا يقتدى به في السلوك في طريقنا هذا»، وكثيراً ما ينشد عنه هذه الأبيات[45] :

إذا المرء ربى نفسه بمراده ... لقد شاد بنيانا على غير أسه
ومن لم تربيه الرجال وتسقه ... لبانا لهم قدر در من شرب قدسه
فذاك لقيط ليس له نسب لأبيه ... ولن يتعدى نسبه أبناء جنسه

وأورد الشيخ اسحق بن الشيخ حمد النيل، كثيراً من كلام الشيخ عبد الله العركي نذكر منه نزرا قليلاً، من ذلك قوله[46] : «لا تدَّعِ حالة القوم يا صاحب الهوى لأنك تعبد الهوى وهم عبيد المولى . أنت رغبتك في الدنيا وهم رغبتهم في النظرة - ويعنى بها قوله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»[47]-.

توفي الشيخ عبد الله العركي مع إطلالة القرن السابع عشر، وخلفه تلميذه الشيخ محمد ولد داؤود الأغر ، ثم أوصى بالخلافة بعده إلى الشيخ دفع الله المصوبن الذى كان في طلب العلم وقت وفاة الشيخ عبد الله العركي[48]. وقد رثاه عبد النور الشاعر هو والشيخ أبو إدريس أخوه بأبيات أطال فيها منها، قوله[49]:

لأهل الله تعزية نقول ... فننظمها بأبيات تطول
جبال الأرض زالت واستقلت ... فوا اسفاه على موت الفحول
فهم من بيننا قمر منير ... وعند الله أشهاد عدول

المبحث الرابع: موضوعات وفنون شعر الطريقة القادرية العركية :

التصوف علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، قال الشاعر[50]:

علم التصوف علم ليس يدركه إلاأخـــــــوفطرةبالحق معروف
وكيف يعرفه من ليس يشــهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

والصوفية هم أهل الاستطاعة، لقوله ﷺ: «ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم به، فأتوا منه ما استطعتم». والاستطاعة هنا قدرة نهوض وتوجه نفسي، واختص الصوفية بأعمال القلوب، وأحكام الورع ، ومداومة الذكر، ومحاسبة النفس وحب الرسول ﷺ .

فإن شعر الطريقة القادرية العركية في السودان، قد ترك آثاراً متعددة ومتجددة في الحياة السودانية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، مما جعل لتلك الآثار أهمية خاصة في دراسة المجتمع والسياسة والثقافة وروافد الشخصية من خلال نهجها التربوي وأشعارها وأورادها وآداب الطريق[51]. فالإنتاج الأدبي الرفيع يخضع للمقدرات الفردية المتحصنة بهذه الطريقة الصوفية ، والشعر أحد ضروب هذه الأدبيات . ولعلنا نعلم أنّ نظم الشعر إبداع فردي في إطار وافق ما يستظل به من طريقة صوفية، وهي أيضاً من المسائل التي لم تكن وقفاً على شعراء السودان والطريقة القادرية العركية ، بل وجدنا طوال مسيرة الصوفية قدراً من هذا الإنتاج الشعري والأدبي، الذي يصعب حصره ، وليس من الممكن الوقوف على حدوده بدأ البردة وتخميسها وتشطيرها، وما جاء مدحاً لرسولنا الكريم ﷺ، ومروراً بالأناشيد الدينية باللغتين الفصحى والعامية الموجودة في كل بلد مسلم أو عربي[52]. والناظر إلى شعر الطريقة القادرية العركية في السودان ، يلاحظ أنه يعنى بالبحث عن الحقيقة والنفاذ إلى صميم الأشياء وكشف ما وراء الطبيعة ، فهو يحلق في آفاق الطهر، ويسمو فوق الرغبات الحسية ويتفوق على جموح النفس ، بل ويدنيها أحياناً ، ويعد الجسم سجناً لها في كثير من الأحيان . والشعر الصوفي عندهم، بل عند كل المتصوفة يكون إلهياً محضاً ، تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق ، وهو شعر مؤول ، لا يقصد ظاهره في كثير من الأحيان، وإنما له محامل يحمل عليها وتليق به، يروى أن الأمام العارف بالله محي الدين بن عربي ، قال[53]:

يا مَن يَرانِي ولا أراه كَم ذا أراه ولات يَرَانِي

فلما سمع بعض إخوانه هذا البيت ،سألوه : كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ ! فقال ابن عربي مرتجلاً[54]:

يا مَن يـــــــــرَانِي مجلاماً ولا أراه آخـــــــــــذا
كـــــــــم ذا أراه منعماً ولا يـــــــــــــراني لائذا

ومن هنا ندرك أن الشعر الصوفي في أكثره لا يفهم إلا على سبيل التأويل. وإذا تتبعنا شعر الطريقة القادرية العركية في السودان وجدنا فنونه وأغراضه تتمثل في فنون الشعر الصوفي الإسلامي التي طرقها شعراء التصوف من قبل، ومنها: المديح النبوي والحب الإلهي والغزل الصوفي ومدح الشيوخ وغيرها من الأغراض، والتي نجدها في مختلف دواوين وقصائد الشعراء والمشايخ، وفي كثير من الأحيان نجد النص الشعري مزيج من تلك الأغراض والفنون، وقلما نجد غرضاً مستقلاً . ولعل أبرز رموز الشعر الصوفي: الغزليات والخمريات، فهي رموزاً للتعبير عن نشوة الحب. ومن أبرز فنون وموضوعات الشعر الصوفي عند الطريقة القادرية العركية في السودان، نذكر:

أولاً- الحب الإلهي :

ويعني حب العبد لله سبحانه وتعالى ، وهو ذلك الحب الذي أشارت إليه رابعة العدوية في قولها[55]:

أحبك حبـــــــين حب الهوى وحب لأنـــــك أهل لذاكا
فأما الذي هـــــو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حـــتى أراك

وتتجلى صورة الحب عند الصوفية في صورة نادرة من الوفاء للمحبوب والتفاني والسمو بالمشاعر والتحرر من قيود العالم المادي ، وهو ما ينشده الصفوفيون في مشاعرهم ، يقول أحمد أمين: « وللصوفية شعر جميل مملوء بالحب والفناء ووحدة العاطفة وقوة الوجدان، وقد استعملوا فيه التعبيرات الدنيوية على سبيل الرمزية من خمر ونساء وبكاء أطلال وحب وهيام ووصال ... يعنون بذلك أحوالهم مع ربهم»[56]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك الحب في قوله تعالى: « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»[57]، كما أشار إليه ما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»[58] . ومما لا شك فيه أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد سبقا الشعر الصوفي في استعمال هذا اللفظ، إلا أنهم الصوفية قد اهتموا به ويرون أنه فناء في الخالق عز وجل، وتعلق أفئدتهم وانشغالهم الدائم به، يحقق لهم الخلوة في الإيمان. ومن ذلك الحب الإلهي حيث تأثر الشعراء الصوفيون في السودان، ولا سيما شعراء الطريقة القادرية العركية بالشعر الصوفي العربي، وهم في ذلك متأثرون خاصة بشعر سلطان العاشقين «ابن الفارض»، الذي يفني في جمال الذات الإلهية ، ويحب كل شيء ويجد نفسه منجذباً إلى كل شيء جميل، ونجده يحدث عن نفسه فيرى أن ما قيل قبله في الحب الإلهي وما سيقال بعده، لم يبلغ مبلغه، بل إنه المثل العلى الذي ينبغي أن يقتدى به، يقول[59]:

قل للذين تقدموا قبلي ومن بعدي ومـــــن أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا و بي اقتدوا ولي اسمعوا وتحدثوا بصبابتي بين الورى

ويقول أيضاً:

فإن شئت أن تحيا ســــــــعيداً فمت به شهيدا وإلا فالغرام له أهـــــل
فمن لم يمت في حبه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

والحب الصوفي لدي القادرية في السودان ذكر فيه هذا الحب المتعلق بحب الإله وحب رسوله ﷺ ، وحب مشايخهم ، ومن ذلك قول الشيخ عبدالقادر[60]:

وَلَما صَفَا قَلْبي وَطَابَتْ سَرِيرَتِي وَنَادَمَنِي صَحْوِي بِفَتْحِ الْبَصِيرة
شَهِدْت بِأَنَّ الله مَوْلَى الْوِلاَيَةِ وَقَدْ مَنَّ بِالتَّصْرِيفِ فِي كُلِّ حَالَةِ
سَقَانِي إِلهِي مِنْ كؤوس شَرَابِهِ فَأَسْكَرَنِي حَقَا فَهِمْت بِسَكْرَتِي

وقوله:

مَا فِي الصَبابَةِ مَنْهَلٌ مسْتعْذَب إلاّ وَلِـــــى فِيهِ الْأَلَذُ الأَطْيَب
وفِي الْوِصَالِ مَكَانَةٌ مَخْصوْصَةٌ إلاَّ وَمَنْزِلَتي أَعَزُّ وَأَقْـــــرَبُ
سَقَانِي حَبِيبِي مِنْ شَرَابِ ذَوِى الْمَجْدِ فَأَسْكَرَنِي حَقّاً فَغِبْتُ عَلَى وَجْدِي

إنّ الصوفية في حبهم لله لا يعول عليه بالطاعة ، لأنها واجبة على الجميع ، فمن أطاعه فيجزى خير الجزاء، أما الحب فهو حب خالص مجرد عن أي غرض، يقول الشيخ دفع الله القادري العركي[61]:

جوف الهجوع لبس الدروع
نعم الخَشُوعُ نزلن دموع
جوف الهجايم هبن نسايم
ويذوب الهـــــايم لله قايم

وإذا كان الحب الإلهي في الشعر الصوفي هو الموضوع الأول والأهم، فهناك أيضاً الزهد، والحكم، والدعاء، والتسبيح ، والمناجاة، والغزل الصوفي ؛ وهي جميعها وموضوعات مرتبطة مع بعضها البعض، ولعلها جميعها اتجاهات روحية للتقرب والفناء في الذات الإلهية .

ثانياً- المديح النبوي:

تقف الباحثة هنا أمام ممد وح في غنى عن مدح الشعراء ، وثناء البلغاء فقد أثنى عليه ربه وعظمه فقال: «وإنك لعلى خلق عظيم»[62] فضله الله بالرسالة واصطفاه للقرب والمشاهدة، وختم برسالته الرسالات، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وجمع له بين جمال الخلق وسمو الخلق، فأمّ الشعراء محراب جماله، ووقف الشعر في أعتابه مذ كان في المهد صبياً ،حين أنشد عبد المطلب[63]:

الحمد لله الـــــذي أعطاني هـــــذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان

وصحبه الشعر في مختلف مراحل حياته، وبعد رحيله ، والى يوم الناس هذا، قال فيه أبو طالب[64]:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وان فخرت يوما:فإ ن محمداً هوا لمصطفى من سرها وكريمها

إنّ المديح عند العرب في عصورهم الأولى فخر كله ، إذ إن أساس الطبيعة البدوية فضيلة الاعتماد على النفس، وهي التي تحدث الكبرياء الصحيحة، ولم يعرف العرب كذلك التكسب بالشعر، حتى ضعفت البداوة عندهم، فرأينا بعض الشعراء يتكسبون بشعرهم . ولما جاء الإسلام مدح الشعراء أمثال: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، الرسول ﷺ، فكان ذلك أول منابع الشعر الصوفي، فكانت قصيدة: كعب بن زهير طريقاً التمسه الشعراء من بعده في العصور التالية في مدح الرسول ﷺ، وتفننوا فيه غاية التفنن، ومطلعها[65]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يجز مكبول

أضحت هذه القصيدة فاتحة لوناً جديداً من الشعر، عرف باسم «المدائح النبوية»عند الصوفية ، فهي لون من ألوان التعبير عن العواطف الدينية ،وباب من أبواب الأدب الرفيع؛ لأنها صدرت عن قلوب مفعمة بالحب الصادق والإخلاص المكين . والأمداح النبوية تعد من ذيول السيرة النبوية وهي البذور الأولى للشعر الديني عامة، كما أنها وثيقة الصلة بالزهد والتصوف؛ بل أن بعض الباحثين اعتبرها من فنون الشعر التي أذاعها التصوف . وقد نظم الشيخ المكاشفي في المديح النبوي قصيدة طويلة من أكثر من ستمائة وخمسين بيتاً قام فيها بتسبيع قصيدة «البردة» للإمام شرف الدين البوصيري (ت:695هـ) سماها «شموس الأنوار في مدح النبي المختار» ومطلعها[66]:

الله يدري فؤادي فيك ذو همم في عشقه وحشاشي زائد بالنهم
على نبي عظيم نافِي التهـــم كففتُ ماء عيون الماء سائل مهم
أمن تذكر جـــيران بذي سلم مزجتَ دماً جرى من مُقلة بدم

ويمتاز الشعر السوداني والشعر الصوفي منه بكثرة المدائح النبوية، ولا سيما المدائح النبوية الشعبية ، ولا اعتقد أن هناك قطراً عربياً يماثل السودان في الكثرة ، وللمديح النبوي في السودان شأن عظيم ومكانة كبيرة ويظهر ذلك من خلال المحبة التي يكنّها أهل السودان للنبي محمد ﷺ، ولكثرة المادحين الذين برعوا في فنون المديح وأبدعوا فيها باللغتين الفصحي والعامية، حتى أصبح السودان الأشهر في هذا المجال[67]. وعُرف المديح النبوي في السودان بأنه مؤسسة شامخة عبر التاريخ لها أعلامها القدامي والمحدثين وملتزموها من المحبين، وكان لشعراء التصوف والطرق الصوفية دور بارز في هذا المجال، ومن بين تلك الطرق الصوفية، الطريقة القادرية العركية، فنظموا الأشعار والقصائد المدحية باللغة الفصحى والعامية بأسلوب سلس نابع من البيئة السودانية ويفهمه عامة الناس، متناولين سيرة المصطفى ﷺ العطرة وما اشتملت عليه من فضائل وشمائل ونفائس معبرين عن حبهم له، فساهموا في نشر الوعي الإسلامي بين الناس، وكان دورهم عظيماً ومشهوداً. وللشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن الشيخ يونس العركى إنتاج شعري ضخم في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، جُمع في ديوانه «الدر النظيم في مدح النبي العظيم»، ومن ذلك قوله[68]:

ما فيك يا ليلاي كان تتيمي لكنني فـــي شـــافعٍ ومشفعي
ملجا اليتاما المصطفى من هاشمٍ كهف الأرامل حصن كل مروعي
من كان يحلب شاته ويقوم في أغراض أهليه بغير ترفعي
ومن أنتقاه الله سيفا قاطعاً أعناق أهل الشرك حزب الأوكعي
طه البشير الهاشمي محمدٌ مولى الأنام وذو المقام الأرفع

وبالنظر في أشعار المدائح نجد شعراء الطريقة القادرية العركية في السودان قد التزموا فيها بساطة الأسلوب مستعملين الخطاب المباشر في مدح الرسول ﷺ، والاستنجاد به شفيعاً للخلق من الذنوب ، وهو موقف لم نعهده من الصوفية في أشعار الزهد والابتهالات ، ويعزى ذلك إلى كون المدائح النبوية أصبحت أثراً شعبياً يتناقله الناس ويرددونه كالأذكار والتسابيح ، فهي إرث ديني اجتماعي . ففي ديوان الشيخ دفع الله بن الفقيه وقيع الله نجد فيه باباً كاملاً عن المدح النبوي، يذكر فيه السيرة النبوية الشريفة ، ويتغنى بشمائل المصطفى ﷺ[69] :

بسم الله أول بادي بالحي الكريم هادي
هدينا الراضي وكل يوم نصلي عليه
الله الله عظم ليه يا شباب بشرانا بيه
في الذكر بنبتدي بيه وعند الختمة نصلي عليه

وفي قصيدة أخرى له بعنوان «قصدي ومرادي» يقول[70]:

قصـــــــــــدي ومرادي لي لِيـــم أســـــــــيادي
بســـــــــم الله بادي بنـــورفـــــــــؤادي
بي نبينا نحـــــــــادي لي كل أشـــــــــدادي

ونجد في ديوانه قصائد يتوسل فيها إلى المولى عز وجل بالرسول ﷺ وآل بيته، منها[71]:

لا إله إلا الله الله محمد رسول الله
عليها نموت إن شاء الله
أول بادي باسم الله بالحي الكريم جل
ثاني القول بنبي الله محمد يا رسول الله

ونلاحظ في شعر الشيخ دفع الله، أنه لم ينظم باللغة العربية الفصحى، وقد كان الشيخ ملماً باللغة العربية الفصحي إلماماً تاماً، فهو خريج المعهد العلمي بأمدرمان ، بل جاء شعره بلهجة أهل السودان العامية، لأن ذلك كان ومازال اللسان السائد في كثير من الأوساط السودانية، وقد نهج هذا النهج من اللهجة العامية معظم شعراء الطرق الصوفية في السودان، وربما كان هم الشيخ يتمثل في حبه إيصال الخير إلى قلوب الناس بأيسر الطرق وبأقرب اللهجات إلى فهمهم، وقد كان هذا ديدن الشيخ دفع الله حتى في إرشاده وخطابه للناس ، فقد كان يتخير في كلامه أيسر العبارات وأسهل المفردات ، ولهذا أراد أن تكون أشعاره باللهجة العامية لتنزل سهلة إلى عقول وقلوب الناس[72]، تمثلاً بقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»[إبراهيم:4].

إنّ شعر المديح النبوي منذ نشأته في مدح الرسول ﷺ، وأصحابه، وجدنا شعراء التصوف قد شمل مدحهم للنبي مدح أقطاب الصوفية ومشايخهم ، فها هو شاعر العركيين ينعت الشيخ حمد النيل ، ويصفة بأوصاف ملازمة له ولأصوله وفروعه ، فيقول[73]:

من المعصوم نسب أصيل قطب في قطب ليس فصيل
فريد العصر خـير الجيل وحيد في وقـــت لا لمثيل

وفي قصيدة أخرى له يمدح فيها الشيخ حمد النيل، ومدى تربيته وإرشاده لأبنائه وحثهم على السير إلى الله ، يقول فيها[74]:

إذا جلس المـــلوك على الكراسي كان جلوسنا على المساجد والزوايا
وإذا تبـــاهوا بديباجٍ وخَزٍ ففخرنا المـــرقع والعبايا
غداً يجمعنا الإله ليوم حشرٍ لننظر مـــن تكون له الولايا

وللشيخ أحمد بن الشيخ دفع الله مجموعة من المدائح النبوية وقصائد القوم الصوفية فى كتاب يسمى : (ديوان العُبَّاد فى مدح خير العِباد) ، ومن هـذه المدائح والقصائد ما طبع فى ألبومات كاسيت وهى :المكسى بالأنوار، النسايم زادن ، الجوهر المكنون، سلامى يفوق، وغيرها من قصائد المديح النبوي[75]. وللشاعر أحمد ود حاج مصطفى قصيدتان هما من معلقات المديح النبوي السوداني، وتعتبر كل قصيدة منهما ديواناً قائماً بذاته في السيرة النبوية عى صاحبها أفضل الصلاة و أزكى التسليم، فالقصيدة الأولى مطلعها[76]:

الصلاة والسلام لى شافع الدارين أحمد كنزنا جد الحسن وحسين
بسم الله ابتديت بى واضح التوزين بالراحم الرحيم وفقنا عين يامعين
بى باب الكريم واقف ذليل مسكين مرتج طالبا لايخيب الطالبين

والقصيدة الثانية بدايتها [77]:

رضي الله عن أصحاب نبي الملل صديق وعمر وعثمان و ثم علي
من قبل الوضوء احكمت للغسل صليت ركعتن لله غير كسل
عاكف واقفا بالخوف والذلل بى باب الكريم اليعطى غير سؤل

ثالثاً- مدح الشيوخ :

هناك مدائح متعددة في شعر الطريقة القادرية العركية، صدرت من شعرائهم تقديراً لأولئك الشيوخ والعلماء والأولياء الذين استفاد الناس بعلمهم وعلومهم وتآليفهم، فإنهم يرون المديح من باب الوجوب، نظراً إلى المنافع والخيرات التي استقوها منهم . وقد جرت روايات المديح والقصيد المنسوب للشيخ عبد القادر علي ألسن كثير من المداح منهم: أبناء (شكيره الوادي)، وأبناء الشيخ مصطفي الفادني، وأبناء الشيخ الصائم ديمه، وأبناء الشيح الغرقان، وأبناء الشيخ ود النزير بالقوز، وأبناء الشيخ ود بدر بأم ضواً بان، وأبناء العديج والكسمبر وطيبة الشيخ عبد الباقي وام دقرسي وحمد النيل؛ هذا علي سبيل المثال لا الحصر إضافة إلي أبناء الشيخ أبو كساوي. وتفنن الشيخ في مديح القوم حتي بلغ شأواً تستحيل في مجاراته، فقد مدحهم إجمالاً فأبدع وخص بعضهم بالذكر، كقوله في الشيخ حسن ود حسونه[78] :

حسن منبور حسن يا ود حسونه التور شي لله

وقال فيه أيضاً:

يا منادي لي أبونا حسن ود حسونه

كما قال أيضاً في قصيدته المشهورة (شئ لله) جامعاً سلسلة القوم أمثال السادة الأعراك: الشيخ المسلمي والشيخ النيل راجل أم قرقور والشيخ أحمد الكشيف وأزرق بابنوسة والشيخ القرشي ود الزين والشيخ أحمد الطيب ود البشير وغيرهم كثير، وفيها يقول[79]:

شئ لله يا حسن يا سلطان الزمن
يا قويـــم السنن يا أستاذ الزمــن
أنت باب المــنن

والعركيون في مختلف عهودهم لهم تلاميذ ومريدون كتبوا عنهم وعججوا مناقبهم وشعراء أثبتوا أمجادهم وإرشادهم للخلق، ولعل قصيدة الشيخ القاضي أبي القاسم بن القاضي دفع الله خير شاهد لهذا الأمر، وقد مدح فيها الشيخ عبدالباقي بن الشيخ حمد النيل وأسلافه العركيين ، فيقول[80]:

عريق المجد مولى كل مولى كريم الطبع والأصـــل الشهـــير
من النيل المبارك مســـتمد وأحمد مـــن أراح مـن الكـــدور
ووالده محمد شمس فضـــل ويوسف ذي الشراء إلى الشرور
إلى القنديل والقطب الطريفي علت بهم العـــــلا متن القصور

ومن ذلك أرجوزة النسب للعلامة الشيخ محمد على الطيب تلميذ القطب الشيخ حمد النيل، وهي أرجوزة طويلة انتظمت نسب العركيين من سيدنا الحسين إلى آخر من عاصرهم من شيخوهم في عصره، ونقتطف منها[81]:

ياربنا بالمصطفى وآلـــــــه وصحبه ومُقتفي فـــــعاله
بشيبة الحمد ذي التصديق وعمرالكهف الرجاء الفاروق

إلى أن يقول[82]:

ويا سلامة بالتُقى سلامة يسر لنا طريق الاستقامة
بنافع وابنه محـــــــمد نسألك اللهم ستر الأبـــد
ومن هنا قد لقبـوا بعركي هم عدتي لشدتي ودركي

ومن قصيدة أخرى في مدح الشيوخ ، مدح الشيخ يوسف بن الحسين، الشيخ أحمد الريح الذي اشتهر بالكرم الفائق حتى لقب بـ «شبع الجوع» والذي في عهده اتسع نطاق الدراسة للقرآن والفقه حتى بلغ عدد الطلاب نحواً من سبعة آلاف طالب يواجه الشيخ كل مطالبهم من سكن وإعاشة وكساء وتخريج للحفظة منهم، فهذه بعض شمائله التي سطرها تلميذ حفيده الشيخ يوسف[83]:

يا راكباً ظَهْر العزائم طاوياً تلك المفاوز مهمهاً وبطاحا
وَعِجِ المطي وَقِفْ بجَاه سادةٍ بأبي حراز موسم الأرباحا
فهو الوسيلة أحمد بن محمد الريح ابن الأتْقيَا الصُّلاحا
هو راحة للسالكين ورحمة للناسكين من اللغوب أراحا
هو كهف أهل الأرض بعد محمد وهلال هدي للبرية لاحا
ذو همة تقف النهاية دونها وندى يدٌ قد أعجز المداحا

وللشيخ دفع الله الصايم قصيدة طويلة بعنوان «سلام الله على أهل المقام» يمدح فيها السادة مشايخ الطريقة العركية وأقطابهم ، منها قوله[84]:

سلامُ الله على أهل المقام ســلام الله على الجافوا المنامَ
رجالاً طَلَّقُوا الدنيا وفازوا وجسومهم مُنْحِلات من الصيامَ
كاملة نفوسهم راضـــية ودمـــــــوعهم تجرى بالدوام
وصلى الله ربى ثم سلم على الهادى النذير وصحبو الكراما
تعم الآل والأصحاب جمعاً وتنجى المسلمين يوم الزحاما

وقد مدح شعراء الطريقة القادرية العركية شيخهم عبدالله بن الشيخ دفع الله العركي بأسمائه وألقابه، ومن ذلك ما قاله شاعر العركيين المشهور بـ «ولد أبو مروة» مادحاً الشيخ العركي بكنيته «أبوالبتول»[85]:

العركي أبو البتول ما فيه مشك
أبو دقناً عفيـــــــفة النور حبكه
أرض الفونج والعرب بالسر ملك
رفع الشيخ عجيب ورآه مـــكه

وأيضاً كني الشيخ العركي بـ «أبي الأبوات» لأبوته الروحية لإخوانه والنسبية لأبنائه وأبناء إخوانه وبنيهم، وفي ذلك يقول شاعر العركيين فيها وفي إماته في الحرمين الشريفين وتعليمه وإرشاده فيهما[86]:

أبو الأبوات العركي أحيا وأموات العركي

صليت إمام العركي بيت الحرام العركي
في مكة قام العركي لإرشاد أنام العركي

وقد أطلقت على العركي ألقاب كثيرة منها، شيخ الإسلام الورع الزاهد الناسك ذو المعرفة التامة لعلوم الشريعة والحقيقة السالك لسبيل السادة الأقدمين وأكمل المتأخرين القطب الرباني والفرد الصمداني الذي هو أحد الركنين الفقه والتصوف وهو ذروة العدول الخمسة كما ذكره شاعر العركيين بقوله[87] :

بالعركي إمام أهل السنة من حُبَهُ لدى الخطوب جُنَّهْ

رابعاً- زيارة الأماكن المقدسة في شعر القادرية العركية:

أكثر ما يهيج أشواق المحبين بدء قوافل الحجيج، وكما هو معلوم فقد كان السودان معبرًا لحجاج الغرب الأفريقي قديمًا؛ تعج المدن بحركة حجيجها وبالعابرين من الحجاج، فتجد في قصائدهم ذكرًا لبرنو، وكانم، وحواضر غيرهما في الغرب الأفريقي.

ويزخرُ شعر المديح النبوي السوداني بالقصائد التي كان الحج موضوعها، والتي ترسم ملامح الحياة الاجتماعية في العصور المختلفة، وشيئًا من عادات السودانيين وطقوسهم في الحج ورحلته. ومع اقتراب موسم الحج من كل عام تزداد مشاعر المحبة والشوق في قلوب المسلمين للديار المقدسة ولزيارة قبر الرسول ﷺ؛ لمكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم، أشواقٌ ترجمتها قصائد شعراء الطريقة القادرية العركية في السودان، ومن ذلك ما جاء في ديوان الشيخ دفع الله[88]:

هيا الأخوان هيَّاكمْ جِدُّوا السير فى صباكمْ
بسم الله فى مبداكم صـــــلُّوا على ملجاكم
كونوا الرسول فى حماكم شَفَّاع أمور قساكم
نجد السير ونوالى نذكر الله مـــــا نبالى

ويرى الشاعر والناقد الواثق يونس: «أن الشعراء من أشد الناس عاطفة وأكثرهم تأثرًا بما يحيط، فكان من الطبيعي أن تخرج هذه الأشواق في أشعارهم»، وقد تظهر هذه الأشواق صراحة في القصيدة أو يكنى عنها»[89]. وعن ذلك يتحدث الشاعر والناقد أبو عاقلة إدريس، فيقول «إن مهيجات الشوق كثيرة، والشوق للديار المقدسة تهيجه مواسم الطاعات وأهمها الحج، وقد يربط شعراء الصوفية الشوق ببعض المظاهر، كالبرق على طريقة الشعراء الأقدمين، مثل قول الأعرابي: (رأيت بروقًا داعيات إلى الهوى)، فتجدهم يقولون: (الليلة برق الروضة لاح)، أو (الليلة البريق لاح لي من السوح)، وغير هذا كثير»[90]؛ لكن أكبر ما يهيج أشواق الشعراء الصوفية ، شوقهم لزيارة «طيبة» المدينة المنورة وزيارة النبي ﷺ، يقول الحسن ود قرشي في قصيدته « طيبة الفيها سيد الكونين»[91] :

نفسي أحـــــــز فيها شرهت الدنيا لا جافيها
والأوامر بالسعي وفيها أهوال يوم البعوث تكافيها
صيغك سجيها بشـــــفاء عياض امـــــزحيها
فوق خيار العالم ومنجيها عند الله بها تبتغي وجيها

ومن القصائد التي يكثر السودانيون ترديدها قصيدة الشيخ أبو كساوي (1884-1841م) التي أداها كثيرٌ من المادحين[92]:

قالو الحجيج قطع طالب نور البقع
قلبي زاد وجع حماني القـــيد منـع

إنّ القيد الذي منع أبو كساوي من الحج لم يمنع خياله، وإذا به في وسط القصيدة يتخيل نفسه في ميناء سواكن ، فيقول[93]:

ريس السفينة قال أهلا مداح السيد
إلى أن يبلغ جدة ، فيقول[94]:

في جدة خروجنا ما فينا من مريض

ونلاحظ أنّ قصيدة أبو كساوي (قالوا الحجيج قطع)، تربطنا بقصيدة البرعي اليماني (1400-1368م) (يا راحلين إلى منى بقيادي)، التي يسافر فيها بروحه ويتخيل المناسك، وحال الحجيج، فأثر قصيدة البرعي اليماني على شعراء التصوف بُعده كبير، وتبيَّن ذلك عند شعراء الطريقة القادرية العركية في السودان لا يحتاج إلى مشقة، وهي من القصائد المحبوبة عند شعراء الطرق الصوفية عامة.

ومما يجدر ذكره أن شعر التصوف عمومًا فيه تمنٍّ بمجاورة الرسول ﷺ والموت في طيبة، وفي ذلك يقول أبو عاقلة إدريس إن من أشهر القصائد في ذلك قصيدة الزمخشري (قامت لتمنعني المسير تماضر)، حين يقول[95]:

سأقيم ثَم وثَم تدفـــن أعظمي ولسوف يبعثني هناك الحاشر

خامساً: التوسلات والابتهالات:

ارتبط ظهور شعر التوسلات والابتهالات بظهور التصوف نفسه، ويعد الشيخ عبدالقادر الجيلاني رائد هذا النوع من الشعر في الطريقة القادرية ، ومن أشعاره في التوسل، قصيدته الطويلة التي توسل فيها لله تعالى بأسماء الله الحسنى، وفيها يقول[96]:

مِنَ اللهِ فَادْعُهُ بِأَسْمَائِهِ العُلاَ وَقُلْ بِانْكِسَارٍ بَعْدَ طُهْرٍ وَقُرْبَةِ
فَأَسْأَلُكَ اللّهُمَ نَصْراً مُعَجَّلاَ بِحَقِّكَ يَا رَحْمٰنُ بِالرَّحْمَةِ الَّتي
أَحاطَتْ فَكُنْ لِي يَا رَحِيمُ مُجَمِّلاَ وَيَا مَلِكٌ قُدُّوسُ قَدِّسْ سَرِيرَتِي
وَسَلِّمْ وُجُودِي يَا سَلاَمُ مِنَ البَلاَ وَيَا مُؤْمِنٌ هَبْ لِي أَمَانَاً مُحَقَّقَاً
وَسِتْراً جَمِيلاً يَا مُهَيْمِنُ مُسْبَلاَ عَزِيزٌ أَزِلْ عَنْ نَفْسِي الذُّلَّ وَاحْمِني
بِعِزِّكَ يَا جَبَّارُ مِنْ كُلِّ مُعْضِلاَ وَضَعْ جُمْلَةَ الأَعْداءِ يَا مُتَكَبِّرٌ

وكثيراً ما نجد مشايخ وشعراء التصوف يتوجهون إلى النبي ﷺ ويتوسلون بشفاعته وبصحابته الراشدين، إذا حل بهم مكروه أو حزن أو ضر ليرفع عنهم رب العالمين هذا الكرب والهم والغم، وقد نظم السادة العركيين منظومات كثيرة في التوسل بالمصطفى ﷺ، ومن بينها ما أنشده العلامة الشيخ محمد على الطيب تلميذ القطب الشيخ حمد النيل[97]:

يا رَبنا بالمصطفى وآلـــه وصحبه ومُقْتفِي فـــعاله
بشيبة الحـمد ذي التصديق وعمر كهف الرجاء الفاروق
بسيدي عثمان ذي الأسرار وبابن عم المصطفى المختار

وطريق القوم تحفة الكثير من المصاعب والمشاق التي لابد للمريد أن يسلكها أولها التأدب والتأسي، كقول شاعر العركيين واحد أساطين اللغة العربية صاحب ديوان الدر النظيم في مدح النبي العظيم الشيخ العارف بالله الشيخ عبدالله محمد يونس العركي[98]:

إذا افتخر المثرون بالمال والغني فالبعلم والآداب فخري ولا عجبُ
فإني من القـــــوم الذين تأدبوا بآداب طـــــه حـــيث أدبة الربُ
ولا مـــــال لي إلا الزهادةُ والتقي ولا عـــز لي إلا العفاف وذا حسبُ

إلي أن يصل مفاخراً بالعركيين وصلاحهم وفلاحهم، والتوسل بساداتهم[99] :

إذا كنت في هـــــم وغـــم فنادهم وقل هيا يا أعراك قد مسني الكربُ
يجـــوك كقدح الزند حالاً وفوقهم عمائم خـــضرُ ترتمي بهم النجبُ
ونسبتهم ياصـــاح عليا لأنـــــه إلي زين عباد الورى ينتهي العقبُ

وللشيخ عبدالله حفيد الشيخ يونس العركى إنتاج شعري في مدح المصطفى ﷺ والتوسل به، جُمع في ديوانه «الدر النظيم في مدح النبي العظيم»، ومن ذلك قوله[100]:

ماذا أقول وفـــــيه كل فضيلةٍ
وصف الكتاب لها بقولٍ ممتعي
لكـــــن ظني أن أثاب بمـــدحه
وهو الغني عن المديح المبدعي

ولعله من نافلة القول استحالة الإحاطة الشاملة بكل فنون وموضوعات شعر الطريقة القادرية العركية الصوفية، في مثل هذا الحيز المحدود والذي سعينا لتوظيفه في إبراز ملامح من الأغراض والموضوعات الشعرية لديهم. ورغم اختلاف الآراء حول هذه الطرق وفنونها الأدبية، إلا أنها كان عليها المعول الأكبر في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس سيرة المصطفى ﷺ وشمائله، وتعليم الناس شئون دينهم ودنياهم، ونشر وتثبيت العقيدة وتهذيب السلوك وترسيخ القيم الإسلامية الفاضلة.

خاتمة:

تأثر شعراء التصوف في السودان بالموروث الصوفي بالمجمل وتوظيفه في تجاربهم الشعرية، وللطرق الصوفية في السودان سلطانها القوي على الإنسان السوداني ، فتوجد في السودان حوالي أربعين طريقة صوفية من أشهرها: (القادرية) وفروعها المتعددة ومنها العركية، وهذه الطرق منتشرة في كل أرجاء السودان، وتتنافس هذه الطرق فيما بينها ويساعدها في ذلك التنشئة الدينية في المجتمع نفسه، فالمواطن صوفي بالفطرة، ولذلك تجده ينجذب إلى مثل هذه الطرق ويستمع إلى أشعارها، ولا سيما شعر المديح. وقد حُظيت الطريقة القادرية العركية في السودان بشعراء لهم القدح المعلى؛ أثروا الحركة الأدبية و الشعرية في السودان وغيره من البلدان، بأسمى العبارات الروحية الجزلة . وقد نال شعرهم الحظ الأوفر من حيث الذيوع

والانتشار، الأمر الذي جعل هناك صلة وثيقة بين الطرق الصوفية والمجتمع. وتوصلت الدراسة إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

1. إنّ الأصل الذي اشتُقَّت منه كَلمة (التَّصَوُّفِ) أو كلمة (صوفيٍّ)، لم يُعرف له مصدر محدَّد من قِبل العلماء وأكثرِ الباحثين، سواء منَ الصُّوفيَّة أو من غيرِهم، وتعددت الأقوال وكثرت في تعريف معنى التصوف ولكن جميع هذا الأقوال تصب في منبع واحد وتخرج من مشكاة واحدة.
2. رغم قدم ظهور التصوف فى الأمة الإسلامية إلا أنه لم يظهر فى شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا فى عهد الشيخ عبد القادر الجيلانى والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلانى .
3. الطريقة القادرية طريقة عالمية لا تقتصر على بلد إسلامى واحد ، وإنما تمتد إلى أرجاء العالم مبينة جمال الإسلام وآدابه ، وموضحة حقيقته لأنها أختارت المنهج الصوفى الإسلامي فى سيرها وسلوكها إلى الله تعالى ، حيث أعادت إلى الأمة وجه التصوف الحقيقى .
4. أثرى الصوفيون الشعر بفنون شعرية جديدة، مثل: المحبة الإلهية، المديح النبوي، التوسلات، شعر الرحلة والحنين، إثراء كبيراً، حيث فتحوا له المنافذ، ووسعوا من جوانبه ومذاهبه في التعبير والأداء، وجهتهم الحقيقة ودافعهم الشوق، والحب، ورغبة الظفر بالوصل.
5. الطرق الصوفية ومن بينها الطريقة القادرية العركية، قد شكّلت وجدان معظم أهل السودان وتركت آثاراً متعددة ومتجددة في الحياة السودانية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي مما أكسب هذه الآثار أهمية خاصة في دراسة الأصول الفكرية للمجتمع والروافد المغذية والمؤثرة في تشكيل الشخصية السودانية وارتباط ذلك بالمتغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية في الحقب التأريخية المختلفة.
6. شكَّل الشعر السوداني الصوفي ملمحاً من ملامح الحياة السودانية، وصارأحد أهم الموضوعات الأدبية التي تناولها الشعر السوداني فصيحًا كان أو مما جرت به اللهجة الدارجة.
7. أبرز الموضوعات الشعرية التي تناولها شعراء ومشايخ الطريقة القادرية العركية في السودان: الحب الإلهي، والمديح النبوي، ومدح الشيوخ. ويعد مديح المصطفى عليه الصلاة والسلام حاضرًا في كل محافلهم، فلا يخص بالمولد النبوي وذكراه أو المجالس الدينية، بل يكاد يكون حاضرًا في كل المناسبات والأحداث الاجتماعية.

وتوصي الباحثة بالآتي : دراسة الشعر الصوفي لدى الطرق الصوفية الأخرى في السودان، دراسة نقدية بناءة ، لكي نرجعه إلى أصوله الإسلامية الصحيحة .

الهوامش:

(1) سورة النحل: الآية 80.

(2) ابن منظور ، لسان العرب، ج9، دار أدب الحوزة، قم، ايران، 1405هـ ص 199.

(3) قاموس المعاني الجامع: شبكة الإنترنت.

(4) محمد ابن بكر الرازي: مختار الصحاح، عُني بترتيبه: محمود خاطر بك ، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1973، ص373 .

(5) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، مصر، 2003 باب «صوف».

(6) الأنصاري الهوري، منازل السائرين ، م1، معهد الآداب الشرقية ، بيروت، (د.ت)، ص59.

(7) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون ، ط 1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1993م ، ص381.

(8) أمين أحمد، ظهر الإسلام ، المجلد الثاني، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1969، ص 841 .

(9) قاسم غنى: تاريخ التصوف في الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ترجمة: صادق نشأت، مكتبة النهضة المصرية 1970م، ص 60.

(10) عبد السلام العمراني الخالدي، رسائل النور الهادي ، ص61.

(11) المرجع السابق، ص 63.

(12) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ ص 95.

(13) شيماء أحمد الليثي، التصوف عند مصطفى محمود، مجلة المعرفة التربوية، العدد2، يوليو2013، ص79.

(14) ميرغنى حمد ميرغني، وصلاح التوم إبراهيم: التصوف في شعر الطريقة القادرية العركية، مجلة جامعة كسلا، ع:.

(15) المرجع نفسه.

(16) أحمد زروق، قواعد التصوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 2، 2005م، القاعدة الثانية، ص 21.

(17) مقدمة ابن خلدون، ص 329.

(18) المرجع نفسه، ص 330.

(19) الغزالي ، روضة الطالبين وعمدة السالكين ، دار السعادة ، مصر ، د.ط ، 1924 ، ص 143.

(20) عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق : معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية ، بيروت، 2007، ص 7

(21) الجرجاني ، التعريفات ، طبعة حلبي ، القاهرة مصر ، د.ط ، 1938 م ، ص 4.

(22) إبراهينم هلال، الفلسفة والدين في التصوف الإسلامي، نور حوران للنشر والترجمة، سوريا، 2009، ص 45.

(23) عثمان مصطفى سليمان، الخصائص اللحنية للدوبيت، رسالة ماجستير، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، السودان، 2004، ص15.

(24) بابكر الأمين الدرديري، من قضايا الأدب السوداني، مطبعة جامعة الجزيرة، مدني، 2014، ص40.

(25) المرجع نفسه، ص 40.
(26) المرجع نفسه، ص 41.
(27) عبدالجليل عبدالله صالح، لمحات من الشعر الصوفي، ط3، الراوي للنشر والتويع، السودان، 2019، ص94.
(28) المرجع نفسه، ص95 .
(29) عثمان مصطفى سليمان، الخصائص اللحنية للدوبيت، مرجع سابق، ص15.
(30) الطاهر محمدعلى البشير، الأدب الصوفي السوداني، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط1، 1970، ص45.
(13) جعفر محمد عثمان، شعر المديح نشأته وتطوره، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، 1969، ص225.
(32) عبدالجليل عبدالله صالح، لمحات من الشعر الصوفي، مرحع سابق، ص90.
(33) قرشي محمد حسن، ديوان ود سعد، مرجع سابق، ص 7.
(34) الباشا برشم، النزعة الصوفية في الشعر السوداني، ص34.
(35) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ص 67.
(36) عبده بدوي، الشعر في السودان، مرجع سابق، ص 62.
(37) إدريس محمد جماع، ديوان لحظات باقية، دار الفكر ، الخرطوم ، ط4 ، 1989 ، ص45.
(38) التجاني يوسف بشير، ديوان إشراقة، مرجع سابق، ص 21.
(39) نقلاً عن موقع الشيخ دفع الله الصانع ديمه، الشبكة العنكبوتية.
(40) موقع الطريقة القادرية العلية، قواعد الطريقة، نسخة محفوظة، 30 مارس 2017، وينظر: موقع واي باك مشين.
(41) المرجع نفسه.
(42) المرجع نفسه .
(43) النفحات الزكية ، ص129.
(44) المرجع نفسه ، ص 132.
(45) المرجع نفسه ، ص 133.
(46) المرجع نفسه ، ص 133.
(47) سورة القيامة : آية 22 - 23 .
(48) هذا التاريخ مستنتج من فراغه من نظم المقدمات الذى كان فى سنة 1007 هـ الموافق 1599 م ، وكان ذلك فى آخر أيام الشيخ عبد الله العركى .
(49) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، ص35.
(50) عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية، ط1، دار إحياء التراث العربي، بغداد، 1984، ص21.

(51) إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، ط1، لاهور ، 1986، ص91.
(52) عبدالحميد محمد أحمد، الصوفية تجربة إنسانية متميزة، مجلة الفيض، العدد9، إكتوبر 2000، ص24.
(53) صابر عبدالدايم، الأدب الصوفي اتجاهاته وخصائصه، دار المعارف، مصر، ط2، 1984، ص23.
(54) المقري، نفح الطيب، ج2، دار صادر، بيروت، لبنان، 1980، ص367.
(55) أحمد أمين، ظهر الإسلام، م2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1999، ص63.
(56) المرجع نفسه، ص66.
(57) سورة آل عمران: 31.
(58) صحيح مسلم: 1/66.
(59) ديوان ابن الفارض ، مرجع سابق، ص74.
(60) عبدالقادر الجيلاني، الديوان، ط1، تحقيق: يوسف زيدان، دار الحيل، بيروت ، لبنان، 1998، ص45.
(61) ديوان الشيخ دفع الله الصايم ديمه ، ص 8.
(62) سورة القلم: 4.
(63) ابن هشام : السيرة النبوية، ج1، ص160.
(64) المرجع نفسه، ص 161.
(65) ديوان كعب بن زهير، تحقيق:أبو سعيد السكري ، دار الشواق للطباعة والنشر، الرياض، ص20 .
(66) الشيخ المكاشفي، قصيدة شموس الأنوار في مدح النبي المختار، نشرها نجله الجيلي عبدالباقي، موقع الطريقة المكاشفية .
(67) جعفر محمدعثمان، شعر المديح نشأته وتطوره، مرجع سابق، ص225.
(68) عبدالله بن الشيخ محمد بن الشيخ يونس العركى ، ديوان «الدر النظيم في مدح النبي العظيم» ، الهيئة القومية للثقافة والفنون، الخرطوم ، 1994، ص 17.
(69) ديوان الشيخ دفع الله وقيع الله، تحقيق عبدالرحمن محمد عبدالماجد، ط2، مطبعة البشير، الخرطوم، 2009، ص6.
(70) المرجع نفسه، ص 8.
(71) المرجع نفسه ، ص 10.
(72) ميرغنى حمد ميرغني، وصلاح التوم إبراهيم: التصوف في شعر الطريقة القادرية العركية، مجلة جامعة كسلا، ع:
(73) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، ص75.
(74) المرجع نفسه، ص 76.
(75) ميرغنى حمد ميرغني، وصلاح التوم إبراهيم: التصوف في شعر الطريقة القادرية العركية، مجلة جامعة كسلا، ع:
(76) حيدر محمد سليمان، الشاعر ود حاج مصطفى شعره وحياته، ط1، دار أرثيريا للنشر، الخرطوم، 2023، ص 46.

(77) المرجع نفسه ، ص 47.
(78) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، ص75.
(79) المرجع نفسه ، ص 76.
(80) المرجع نفسه ، ص 76.
(81) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، ص43.
(82) المرجع نفسه ، ص 91.
(38) محمد على الطيب الأنصاري، السلالات العربية السودانية، ط2، دار الفكر، الخرطوم، 1971، ص 53.
(84) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، ص101.
(85) https://youtu.be/ArqjSyOM_Qw
(86) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، مرجع سابق، ص46.
(87) المرجع نفسه، ص46.
(88) المرجع نفسه، ص 49.
(89) ديوان الشيخ دفع الله الصائم ديمة، ص 53.
(90) الواثق يونس، دائرة الثقافة، موقع إلكتروني، 2024.
(91) الجزيرة نت، موقع إلكتروني، 2022، https:www.aljazeera.net .
(92) قرشي محمد حسن، ديوان ود سعد، مرجع سابق، ص 23.
(93) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، مرجع سابق، ص93.
(94) المرجع نفسه، نفس الصفحة.
(95) المرجع نفسه، نفس الصفحة.
(69) المرجع نفسه، ص94 .
(97) الجزيرة نت، موقع إلكتروني، 2022، https:www.aljazeera.net.
(98) ديوان عبدالقادر الجيلاني، مرجع سابق، ص 21.
(99) أبو إدريس عبدالرحمن، الوراثة المصطفوية المحمدية الإسلامية، مرجع سابق، ص93.
(100) عبدالله بن الشيخ محمد بن الشيخ يونس العركى ، ديوان «الدر النظيم في مدح النبي العظيم» مرجع سابق، ص 14.